

تَفْكَارُ صَيْدِ الْجَمَلِ

شَرْحُ لَامِيَّةِ أَبِي الْوَرْدِيِّ

د. عبد العزيز بن عيسى المحرني
أستاذ لغويات وتفسير النشأة بجامعة أم القرى بكة المكرمة

دار ابن حزم

بين يدي التفاصيل

وقع « تفاصيل الجُمْل » بيد صاحبنا العلامة الدكتور: عائض بن عبدالله القرنيّ، فأطرقَ إطرَاقاً لم يَرَفَعْ رأسه من بعدها حتى فاضت قريحته الفياضة وذهنه المتوقّد بهذه المقدّمة المُنبئة عن أدبٍ جَمٍّ وخاطر مشرق .. فصَلَّ بها لـ « التفاصيل » ثوباً من زينة الأدب، ووضع لها تاجاً من جوهر البيان، ونسجَ لها من خيوط البراعة بسنان اليراعة وشاحاً من البلاغة ..

وإني أُبَادله بحُسن الظنّ يقيناً من الإكبار، وجُملاً من الشّناء .. ولقد كاد يسبقني قلمي لكتابة شيء أذكرُ به قدرَ نفسي عند نفسي .. غير أن من التواضع ما هو فخرٌ .. قال يحفظه الله :

لو علم ابن الوردي بمن سوف يشرح لاميته لسكب سروره في قوافيه، ولأراق كأس فرحه في أبياته، كيف وشارحها من أذعن لبيانه أساطين البيان، وانبهر من جلال علمه دهاقنة الحكمة، أتاكَ هذا الكوكب النوراني يشق دياجير الغموض، وينير سراديب الإشكال، وما فضّلتُ النثر يوماً على الشعر حتى رأيتُ نثره على شعر ابن الوردي، فعلمتُ أن نثر الدرّ أجمل في العيون، وكان حقاً تشبيه الولدان بالدرّ المنتور، ولم يكن أبو محمد عبد العزيز بن علي

بنومه على النجوم، وأهدى كراه الكواكب، فحاز رتبة الريادة، ونال وسام السيادة، ما أتشف به قلوب محبيه، وحيته أرواح عارفيه، فله من أعماق أهل الفضل تحايا، وإليه تسير من ديار الوفاء مطايا، فقبلة أدبه عامرة، وكعبة شرفه أهلة، فجعله الله مداده وزن دماء الشهداء، وحشره في كوكبة الأنبياء، جزاء سهر ذابت معه حشاشته، وثواب تحصيل ذبلت فيه أجفانه، والله يحفظه لدنيا المعارف أستاذًا، ولعالم العلوم إمامًا، وصلى الله وسلم على قائد الغر المحجلين، وآله وصحبه والتابعين .

د. عائض القرني

٦/١٠/١٤٢٣هـ

الحمد لله على توفيقه وفضله ، وتيسيره وطوله ؛ إذ هدانا إلى العلم النافع تعلّمًا وتعليمًا وتصنيفًا ، ونسأله أن يزيدنا هدىً وتوفيقًا .. ولقد كان من توفيقه - عزّ وجلّ - تأليف هذا الكتاب وأمثاله ممّا هو من العلم الذي يُنتفع به ، وكأين من إنسان ابتلاه ربّه بأن زوّج له سوء عمله فرآه حسنًا ، فكتب للناس كتبًا ضالّةً مضلّةً لعلها تبقى إلى قيام الساعة شاهدةً عليه وكاشفةً عن هواه ، ويوم القيامة تكون عليه حسرة ، وكأين من إنسان ابتلي بالولع بالشهرة ، فسطا على جهد غيره وتشبّع بما لم يُعط ، وغار على كتب من سبقه ظلمًا وعدوانًا ، وغير فيها وبدّل ، أو سلخ معناها وزوّر مبناها ، وزها بنفسه عند الناس ، وهانت نفسه عنده بما خدعها به ، ومن أسقط نفسًا ممّن كان مبلغ همّه قول الناس فيه ، ولا يُهمّه رأيه هو في نفسه ؟ نسأل الله معافاته ومغفرته .

لقد توالى طلب إعادة طبع «تفاصيل الجمل» ، بعد نفاد الطبعة الأولى ، ولكنني صرفتُ الهمة لكتب أخرى في طريقها إلى الطبع ، منها : «المقامات» ، و«كتاب أدلة الأحكام» ، و«وجه النهار .. الأوسط» ، وأستجيبُ اليوم للرّاعبين من أهل العلم والأدب في تنقيحه وتصحيحه وطباعته ثانية .. وإني لأسأل المولى سبحانه أن ينفع به وينفع بقارئه ، وأن يجعله من صالح ما نقدمه من آثار صالحة نافعة في الدّنيا ويوم يقوم الحساب .

مقدمة الطبعة الأولى :

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على نبينا محمد ، وآله وصحبه .

منَ الأحسن لنا أن نتعلَّم من تجارب أنفسنا بما نشاهده من خَطَل يعرضُ في كلِّ حين ، وتجارب فاشلة أحياناً ، ونتعلَّم من تجارب من حولنا .. وإنه لمن جميل حظك أن يفشل غيرك ، وتنتفع أنت بفشله ، وليس هنالك أنكى على من عاداك من أن تجعله وسيلة نافعة لك دونه ، وعظة وعبرة تعتبر بها .

ولو فعل الناس ذلك جماعات ودُّولاً وأفراداً ؛ لما وقع أحدٌ في كثير من الخسران .. ولكن النسيان والآمال والحدُّس والأطماع تفسد الاعتبار ، فيظلم الناس أنفسهم ، يخرجون من الهلكة ويعودون إليها ، ويصيبهم ما يضرهم ، فيرجعون إلى أسبابه ، ويرون غيرهم يشربون من كئوس الويل والنكال ، ويغفلون ، وقد يعتبرون ساعة ، ثم يكعُّون ، كالمرأة التي يصرعها ألم المخاض ، وتعزم وتقسم على أن لا تمكِّن من الحمل بعد ذلك ، ثم تنسى ، وتعود أطلبَ له مما كانت .

وإن ترد معرفة عقل الخاطئين من المكلفين ، وضعف نفوسهم ، وضالة بصيرتهم ، فاقرأ قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْلُنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام].

جرت عادة الناس أن يَذُمُّوا عصرهم، وَيَعَيِّبُوا زمانهم، وليس هذا بسبيل مقيم، فإن الأزمنة ظروف لأعمال الناس وأحوالهم .. ولستُ أبالغ إن قلتُ: إن زماننا في بعض أحواله في كثير من بلاد الله خير من أزمنة مضت، فشا فيها الظلم والجهل والفساد .. ظلم لا يُبقي أملاً في صدر مظلوم، وجهل لا تُتقن معه الفاتحة، وفساد يهلك المال والحرث والنَّسل، ونحن اليوم في عصر لم يمرّ على العالم مثله في وسائله وإمكانياته وحضارته، كله عجائب، واختراعات، وأحداث.

وكان من قبلنا من المسلمين لهم وسائلهم الخاصة في العلم، معظم تثقيفهم في المسجد .. واليوم أصبحت وسائلنا مشتركة، سيف له حَدٌّ وحَدٌّ وحَدٌّ، وكلها قاطع ..

حدٌّ للشُّبهة، وحدٌّ للشهوة، وحدٌّ للخير، والغلبة سِجال، والصدِّق من عوامل النجاح .

لا أُطيل في هذا الاستطراد، فما هو إلا تشويق لـ «لتفاصيل الجُمْل» الكتاب الذي وضعته شرحاً لـ «لامية ابن الوردي»، أقدمه بين يديك مفصلاً، سمّيته «تفاصيل الجُمْل» انتزاعاً من آخر بيت فيها، رددت به العَجَزَ منها على الصدر، فكانت أكثر إمتاعاً وأحسن إيقاعاً.

ترجمة ابن الورّدي^(١)

هو عمر بن المظفر بن عمر، زين الدين بن الوردي، ينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، صرح بذلك في قصيدته فقال:

مَعَ أَنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى نَسَبِي إِذْ بِأَبِي بَكْرٍ اتَّصَلُ

ولد عام ٦٨٩هـ، نشأ وتفقّه بحلب، وكان شافعي المذهب، متفننا في العلوم، ونظمه في غاية الجودة.

وصفه السبكي في طبقات الشافعية (٢٤٣/٦) بأنه: «أحلى من السكر المكرر، وأعلى قيمة من الجواهر».

ولي القضاء، ثم لم يلبث أن عزل نفسه، ولزم التصنيف، قال في لاميته بعد تجربته تلك:

إِنْ نَصَّفَ النَّاسِ أَعْدَاءُ لِمَنْ وَلِيَ الْأَحْكَامَ، هَذَا إِنْ عَدَلُ

وله «ديوان شعر» مطبوع، وتاريخ يعرف «بتاريخ ابن الوردي»، و«ألفية» في تعبير الأحلام، وتصانيف أخرى، وأنظام كثيرة، معظمها في النحو.

توفي عام ٧٤٩هـ رحمه الله.

(١) انظر ترجمته في: شذرات الذهب (١٦١/٦)، وطبقات الشافعية (٢٤٢/٦)، والدرر الكامنة (٢٧٣/٣)، والأعلام (٦٧/٥).

قال ابن الوردي:

١- اِعْتَزَلَ ذِكْرَ الْأَغَانِي^(١) وَالْغَزَلَ

وَقُلَّ الْحَقُّ، وَجَانِبَ مَنْ هَزَلَ

اللغة:

اِعْتَزَلَ: أَمَرٌ مِنَ الْاِعْتِزَالِ، وَأَصْلُ الْمَادَّةِ دَالٌ عَلَى الْاِنْفِصَالِ
وَالْتَنَحِيَةِ، وَهُوَ مِنْ مَوَادِّ الْقُرْآنِ .

الْأَغَانِي: جَمْعُ أُغْنِيَةٍ، وَهُوَ الْكَلَامُ بِصَوْتٍ حَسَنٍ، وَأَرَادَ الْمَصْنُفُ
نَوْعًا مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ فِي الْغَالِبِ يُطْلَقُ عَلَى مَا اشْتَمَلَ عَلَى مَجُونٍ .
وَالْغَزَلَ: الْمَحَادَثَةُ فِي الْحُبِّ .

وَهَزَلَ: بَفَتْحِ الزَّايِ، مِنْ الْهَزْلِ، وَهُوَ ضِدُّ الْجِدِّ، وَهُوَ مِنْ بَابِ
ضَرَبَ وَفَرِحَ، وَهَزَلَ مِنَ الْهُزَالِ، وَهُوَ الضَّعْفُ مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي
جَاءَتْ عَلَى صُورَةِ الْمَبْنِيِّ لِلْمَفْعُولِ، وَهِيَ مَبْنِيَةٌ لِلْفَاعِلِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ:
وَقَدْ هُزِلْتُ حَتَّى بَدَأَ مِنْ هُزَالِهَا كُلاَهَا وَحَتَّى سَامَهَا كُلُّ مُفْلِسٍ

(١) فِي بَعْضِ النُّسخ: الْغَوَانِي، جَمْعُ غَانِيَةٍ، وَهِيَ الْمَرْأَةُ الْمُسْتَغْنِيَةُ بِجَمَالِهَا الذَّاتِي عَنْ
الْجَمَالِ الْمَجْلُوبِ، وَيُقَالُ: هِيَ الْمُسْتَغْنِيَةُ بِزَوْجِهَا عَنْ غَيْرِهِ.

أَرِحْ نَفْسَكَ الْغَرْتَى بِشَيْءٍ مِنَ الْهَزْلِ

لِيُصْبِحَ عَوْنًا لِلْحَرِيسِ عَلَى النَّبْلِ

وكان النبي ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقا.

٢- وَدَعَ الذُّكْرَى لِأَيَّامِ الصَّابَا

فَلَأَيَّامِ الصَّابَا نَجْمٌ أَفْلٌ

٣- إِنَّ أَهْنَا عَيْشَةً قَضَايُهَا

ذَهَبَتْ لَذَاتُهَا، وَالْإِثْمُ حَلٌ

اللغة :

الذُّكْرَى: التَّذَكُّرُ.

الأيام: جمع يوم، يُطلق في الأصل على النهار، ويُطلق على أكثر من ذلك، وعلى الزمان الطويل.

وليس لهذه المادة تصريفات كثيرة في معانٍ أخرى.

الصَّابَا: صِغَرُ السِّنِّ، بكسر الصاد، وبفتحها: رِيحٌ تَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ.

نَجْمٌ: النَّجْمُ إِذَا أُطْلِقَ، انصرف إلى المعهود، وقد يُطلق على مانبت من الشَّجَرِ بما ليس له ساقٌ، وحُمِلَ عليه -عند بعض المفسرين- قولُ الله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦].

ولو وُضعت في كِفة، وسائر اللذائذ المحرّمة في كِفة، لأطارتها الحسرة في الهواء ولو كان معها زُبُر الحديد. قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [الأنفال: ٣٦]. وقال: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٦٧].

٤- وأثرك الغادة لا تحفل بها

تُمس في عز وتُرفع وتُجل

اللغة:

الغادة: الفتاة التي تتشنى في مشيتها وتميل .

لا تحفل بها: لا تجمع همك من أجلها، أصل معناه: الجمع، ومنه حفل الناس، والشاة المحفلة .

الشرح:

الغرام من آفات العقل والقلب والعلم والدين، وهذه الأربعة هي أعلى وأجل من أن يلعب بها، غير أن مسالك المحبة دقيقة، تنفذ دواعيها إلى المحب على حين غفلة، فتصرعه، فلا يبقى له حراك.

والدواء الأول هو الترك والابتعاد عنه، وعدم الاحتفال به، والسلو عنه بالاشتغال بما ينفع، بذلك يرتفع المرء عن الدنيا ويجل عن الرذائل، ويمسي عند نفسه وغيره عزيزاً .. فالحب دافع إلى الذلة

لِللّٰهِ اَوْنَةٌ تَمُرُّ كَأَنَّهَا قَبْلُ يُوَدِّعُهَا حَبِيبٌ رَّاحِلٌ

ويخصّه قوم من العرب بالولد، وآخرون بالزوجة، وبذلك فسر اللّٰهُ في قوله عز وجل: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا﴾ [الأنبياء: ١٧].

أُطْرِبْتُ: حَرَّكَتُ فِيكَ مَشَاعِرَ الْوَجْدِ.

الأمرد: من (مرد)، وهي مادة تدلُّ على الملاسّة والتجريد، ومنه المارد، والخيْلُ المرد، والصَّرْحُ المُمَرَّد، والأمرد من الرجال: من لم يَنْبُتْ لَهُ لِحْيَةٌ.

مُرْتَجٍ: الارتجاج: الاضطرابُ.

الكفل: بفتح الكاف والفاء: العجز، ومادة الكاف والفاء واللام، أصلٌ يدلُّ على حِمْلٍ وثَقْلٍ.

الشرح :

اشتغل - أيها الإنسان - عن كُلِّ ما يشغلك من أنواع اللّٰهُ وأسبابه، فما هي إلا لواعيج تحرك النفس والمشاعر، وتهيج الغزيرة والعواطف، فيستجيب لها - إثر ذلك - الأعضاء والجوارح متى وجدت بغيتها، وحصلت مطلوبها، أو تهمد فتفعل فعل النار التي تأكل نفسها إذا لم تجد ما تأكله.

والعرب تُشَبِّهُ الوجهَ بالشَّمْسِ، وتَسْتَعِيرُهَا لِلجَمَالِ والبَهَاءِ، فإذا قالت: شمسُ الضُّحَى، كان ذلك أبلغَ؛ لأنَّ الشَّمْسَ في وقتها على أحسنِ صُورَةٍ؛ لأنها في الإِشراقِ والغروبِ مُصْفَرَّةٌ، وفي الظهيرةِ زائدة السطوعِ مَعَ حَرَارَةٍ، وفي آخرِ النَّهارِ مُدْبِرَةٌ، وأما في الضُّحَى فهيَ بِيضَاءُ مُقْبِلَةٌ هَادِئَةٌ، تَلَاعِبُ أَشْعَتُهَا ورقَ الشَّجَرِ وأَغْصَانَهُ، ويتسَلَّلُ لعابُها من بينِ فَتَحَاتِ المَنَازِلِ وشُقُوقِ الجُدُرَانِ، فتكوُنُ خُيوطًا طَوِيلَةً عَرِيضَةً من ذراتِ الأرضِ وهبائها وتَتَحَرَّكُ تحَرُّكَ السحابِ، وهو ما تُسمِّيهِ العربُ: لُعَابَ الشَّمْسِ.

ثم زاد في تَوْصِيفِهِ، فقال: إنه يمشي مِشْيَةً فَاتِنَةً باعْثُهَا الاعتزازَ بِجَمَالِهِ وحُسْنِ قَوامِهِ، وثَقَّتِهِ بِإِعْجَابٍ من ينظرُ إليه. ثم قال:

٧- زاد إن قِسْنَاهُ بِالْبَدْرِ سَنًا

أَوْ عَدْلُنَاهُ بِغُضْنٍ فَأَعْتَدَلْ

اللغة :

قِسْنَاهُ: القياسُ: تقديرُ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ، والمرادُ: شَبَّهْنَاهُ.

سَنًا: بالقصر: اللَّمَعَانِ، والمدُّ: الرِّفْعَةُ.

عَدْلُنَاهُ: سَوَّيْنَاهُ .

جَلَل: من الأضداد، يُطلق على الحقيق والعظيم، والمرادُ -هنا-
الأوّل، والأصل أن يقول: جَلَلًا، ولكنه حَذَفَ الألفَ للرّويّ، وهو
أيضًا لغة ربيعة؛ لأنهم يَقِفون على المنصوب المنون بحذف الألف،
وأشرت إلى ذلك في «ما هَبَّ ودَبَّ»، فقلت:

وَقَفَ رَبِيعَةٌ بِحَذْفِ الْأَلِفِ وَالثُّومُ: مُذْهِبٌ لِحَبِّ الْكَلْفِ

الشرح:

ما أحسنَ هذا البيت!

يقول: تفكّر في مُنتهى ذلك الذي زَرَعَ الصَّبَابَةَ في قلبك وفتنك
بجمالِه، أتظن ذلك الغصنَ الرطيبَ سوفَ يبقى على حاله أخضر
ريّان؟، كَلَّا! كَلَّا! سوفَ يعود إلى نهايته المحتومة ذابلًا يابسًا خشن
الملمس، وكذلك الجسمُ الجميلُ، والقوامُ الفاتن نهايته خورٌ
وضعفٌ وشيئةٌ .. شعْرٌ أبيض، وعظم واهن، وجلد يابس، وجفافٌ
في العين، وتنكيسٌ في الخلق، وأثّات كثيرة، وبصر ضعيف،
وضعفٌ في البصيرة، ورعشةٌ في الأطراف، وتهالكٌ في الأعصاب،
وغير ذلك مما لا يُذكر، هذه نهايته وهو حيّ، فإذا ماتَ فنهايتُه
أوضحٌ وأجلى^(١).

(١) ولبعضهم في معنى البيت فهم آخرٌ، حاصله أن المراد بمنتهاه مخرج طعامه ..
أخبرني بذلك الشيخ الفقيه عبد الله بن عقيل (ت ١٤٣٢هـ) رحمه الله.

الشرح:

هذه وصية أخرى يأمرُك فيها بحفظِ العقل ، باجتناِب ما يُذهِبُه عنك ، فتصبحُ مشارِكًا للحيوان البهيمي الذي لا عقلَ لَهُ ولا تَمييزَ ، بل تزيد عليه بإحداثِ حركاتٍ وأقوالٍ لا مَعْنى لها إلا السَّفَهُ وذَهَابُ الحُلمِ ، ومن يسعى إلى إهلاك عقله ، وذهاب لُبِّه ففي عقله شيءٌ .

قال ابنُ حزم في كتابه «الأخلاق والسير : ٢٨» :

«ما رأينا شيئاً فسد ، فعاد إلى صحته إلا بعد لأيٍ ، فكيف بدماغ يتوالى عليه فسادُ السكر كل ليلة ، وإنَّ عقلاً زَيْنَ لصاحبه تعجيلُ إفساده كُلَّ ليلة ، لعقلٌ ينبغي أن يَتَّهَمَ» .

١٠- وَاتَّقِ اللَّهَ فَتَقْوَى اللَّهَ مَا

جَاوَرَتْ قَلْبَ امْرِئٍ إِلَّا وَصَلَ

١١- لَيْسَ مَنْ يَقْطَعُ طُرُقًا بَطَلًا

إِنَّمَا مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ الْبَطْلُ

الشرح:

الوصيةُ بالتَّقْوَى وصيةٌ جامعةٌ وهي كما رُوِيَ عن عليٍّ : الخوفُ من الجليل ، والعملُ بالتَّزِيلِ ، والرَّضَى بالقليل ، والاستعدادُ ليومِ الرَّحِيلِ ، وهي المنجيةُ التي ما تشرب منها قلبٌ إلا ملأته نُورًا وبرهانًا وضياءً ، ووصلَ بها صاحبُها إلى منازلِ الأعلىين .. والمتَّقِي

اللغة:

الشرع: الشرع والشرعة والدين والصبغة والملة، يرادُ بها شيء واحد، وفي نظم المترادف^(١):

كالدين: شرعٌ شرعةٌ شريعةٌ وصبغةٌ وملةٌ منيعةٌ

لا تتركُن: لا تعتمد، أخذ من اعتماد الإنسان على ركن البيت في جلوسه .

يرصدُ: يرقبُ .

زُحلٌ: أحد الكواكب السبعة (القمر، والزُّهرة، والشمس، وعطارد، والمشتري، والمريخ، وزُحل) .

جمعها من قال:

زُحلٌ شرى مريخه من شمسِه فتزاهرت لعطارد الأقمارُ

الشرح:

صدق ما جاء به رسول الشرع فيما أخبر به، وأمر ونهى ولا تتركُن إلى أقوال المنجمين والكهان وكل أفاكٍ أثيم، يزعمُ أن للكواكب

(١) منظومة، أبياتها (٢١١ بيتاً)، لديّ منها نسخة طبعت قديماً، سمّاها مؤلفها تذكرة الحفاظ فيما ترادف من الألفاظ، ولم أعرف مصنفها، فمن عرفه فليخبرني، لأنني أريد إخراجها مع زيادات عليها وتعليقات.

الشرح:

هذا حثٌ مبطنٌ على التفكير في متعلقات القدرة، وإخبارٌ عن عظمة الله وقدرته التي من تفكر فيها دُهِشَ وتحيرَ وردَّه ذلك إلى تسبيح الخالق، وتعظيمه وتمجيده .. ومن قُدْرته أنه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، والحمد لله الذي هدانا سُبُلَنَا ووفقنا إلى صالح العمل .

١٤- كُتِبَ الْمَوْتُ عَلَى الْخَلْقِ فَكَمْ

فَلَّ مِنْ جَمْعٍ وَأَفْنَى مِنْ دَوْلٍ

١٥- أَيْنَ نَمْرُودُ وَكَنْعَانُ وَمَنْ

مَلِكَ الْأَرْضِ وَوَلَّى وَعَزَلَ؟!

١٦- أَيْنَ عَادُ أَيْنَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ

رَفَعَ الْأَهْرَامَ مَنْ يَسْمَعُ يَخَلُ؟!

١٧- أَيْنَ مَنْ سَادُوا وَشَادُوا وَبَنَوْا

هَلَكَ الْكُلُّ فَلَمْ تُغْنِ الْقُلُ؟!

١٨- أَيْنَ أَرْبَابُ الْحِجَا أَهْلُ النُّهَى

أَيْنَ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْقَوْمُ الْأَوَّلُ؟!

الحِجَا: العَقْلُ، وكذلك الحِجَر -بكسر الحاء- والنُّهْيَة،
والْحَصَاة، واللُّبُّ.

النُّهْي: جمع نُهْيَة -بضم النون- قال تعالى: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهْيِ﴾ [طه].

شَادُوا: بَنَوْا قصورهم بالشَّيد، وهو الجَصَّ، وهو لفظ قرآني في
بعض تصرفاته.

الْقُلل: جمع قُلَّة، ما علا من القُصور.

الشرح:

الموت قضية كُتبت على الخلق لا تقبل الاستثناء، وقد حَسَمَهَا
القرآن في أكثر من آية بأساليب مختلفة، قال عز وجل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا
فَانٍ﴾ [الرحمن]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ^(١)،
وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصر: ٨٨]. والموت لُغزٌ حَيَّرَ
الألبابَ، وَعَجَزَتْ فيه جَمِيع الحِيل، فكم من جموع فرقتها شَذَر
مَذَر، وشَعَر بَغَر، وكم من عروشٍ هَدَّهَا، ودولٍ ثَلَّهَا، وأحباب
فَرَّقَهُم، وأصحاب شَتَّتَهُم، لا ينجو منه صغيرٌ ولا كبيرٌ، ولا غني
ولا فقيرٌ، ولا عزيزٌ ولا ذليلٌ، ولا ملكٌ ولا مملوكٌ، ولا سيدٌ
ولا مسودٌ، يقول طرفة بن العبد الشاعر الجاهلي المشرك:

(١) والأنبياء (٣٥)، والعنكبوت (٥٧).

وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٣٩﴾ [الدخان] ، وَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ مِنْ شَيْءٍ
وَلَا قُصُورُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ، وَلَمْ يَنْتَفِعْ أَهْلُ الْعُقُولِ وَالْعُلُومِ بِعُلُومِهِمْ
وَلَا عَقُولُهُمْ ، وَلَمْ يَحُلْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَوْتِ حَائِلٌ ، وَلَا يُمْكِنُ
رَجُوعُهُمْ إِلَى الدُّنْيَا ، فَغَائِبَ الْمَوْتِ لَا يَتُوبُ ، وَسَيَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ،
فَيَنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ، أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ .

٢٠- أَيُّ: بُنِيَ اسْمَعُ وَصَايَا جَمَعَتْ

حِكْمًا خُصِّتْ بِهَا خَيْرُ الْمَلَلِ

٢١- اِطْلُبِ الْعِلْمَ وَلَا تَكْسَلْ فَمَا

أَبْعَدَ الْخَيْرِ عَلَى أَهْلِ الْكَسَلِ

٢٢- وَاهْجُرِ النَّوْمَ وَحَصِّلْهُ ، فَمَنْ

يَعْرِفَ الْمَطْلُوبَ يَحْقِرْ مَا بَذَلَ

٢٣- وَاحْتَفِلْ لِلْفَقْهِ فِي الدِّينِ وَلَا

تَشْتَغِلْ عَنْهُ بِمَالٍ أَوْ خَوَلٍ

٢٤- لَا تَقُلْ قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ

كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلَ

الشرح:

هذه وصية لطالب العلم، عليه أن يحفظها حفظ الأعمى، ويحرص عليها حرص الشحيح، وأن يعرض عليها بالنواجذ، وهي وصية جليلة، مشربة بلبان الحكمة في ثوب من البلاغة جميل، وخير الشعر ما كان حكمة صدق، قدّم الشاعر التنبية عليها بخطاب الإيقاظ، المصحوب بالتدليل، المحفوف بالترغيب، المختتم بالتشويق بأن هذا مما خُصّت به ملة الإسلام، وهذه الأمة، فإن علم هذه الأمة مسندٌ.

فكانت أولى الوصايا:

اطلب العلم الذي هو حياة النفوس، وغذاء الألباب، وقرين الإيمان، وأهله قرناء الملائكة، المتصفون بالخشية وخوف الخالق عز وجل، وبه يفضل كل شيء على سواه من نوعه، حتى الكلاب المعلمة لها فضل على غير المعلمة.

ولما كان من آفات الطلب: الكسل، بادِر إلى التحذير منه، فإن العلم والكسل لا يجتمعان، وقد يرتفعان، وذلك أن الغايات التي يفضل بها الناس في الدنيا وفي الآخرة لا تحصل بالتواني والكسل وإعطاء النفس ما تشتهي، بل لا بُد من الجِدِّ.

وابن الوردي لم يُردِّ هجره مطلقاً، بل أراد الحث على الجِدِّ واطِّراح الكسل، والتنبيه على قيمة الوقت الذي هو الحياة بعينها، ولا يجازف بحياته عاقل، فليكن طالب العلم أبخل الناس بوقته، وأضنَّهم بساعاته .. إن من أوقاتنا -معشر أهل العلم- ما يُنزع منا نزعاً، ويستفرغ منا بالقوة، يطير به من بين أيدينا من لا يعرف ثمنه، ولا يقدر قدره .. ومن عرف غاية وجوده، ملأ ظرف زمانه بنفسه الجواهر وكريم الدرر، من شريف العلم، وصحيح العمل.

ومن أهم العلوم علمُ أحكام الشريعة، وهي المستنبطة من الكتاب والسنة، وفي الصحيح: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» وهو العلم الذي يحتاج إليه كلُّ أحد، فما من أحد إلا يتعلق بأمره حكم شرعي يشارك فيه الأمة أو بعضها، وقد يكون التصدر فيه مما يُقرب إلى الدنيا، ويجلب المال، والرُّتب الرفيعة، ولذلك نبّه الشاعر إلى ترك الاشتغال عنه بمثل هذا. يقول ابن وثان في الحث على درس الفقه والحديث:

وَحُصَّ عِلْمُ الْفِقْهِ بِالدَّرْسِ وَكُنْ

كَاللَّيْثِ أَوْ كَأَشْهَبِ الْعَتَقِيِّ^(١)

(١) الليث، هو: ابن سعد الفهمي ولاءً، إمام أهل مصر في عصره (ت ١٧٥هـ). وأشهب، هو: ابن داود القيسي، صاحب الإمام مالك (ت ٢٠٤هـ). والعتقي، هو: عبد الرحمن بن القاسم العتقي المصري الزاهد، تفقه بالإمام مالك (ت ١٩١هـ).

إلى أن قال:

أَبَيْتُ سَهْرَانَ الدُّجَى وَتَبَيْتُهُ نَوْمًا وَتَبَغَيْي بَعْدَ ذَلِكَ لِحَاقِي

ثم قال المصنّف:

٢٥- فِي ازْدِيَادِ الْعِلْمِ إِرْغَامُ الْعِدَا

وَجَمَالُ الْعِلْمِ إِصْلَاحُ الْعَمَلِ

٢٦- جَمَلُ الْمَنْطِقِ بِالنَّحْوِ فَمَنْ

يُحْرِمَ الْإِعْرَابَ بِالنُّطْقِ اخْتَبَلَ

٢٧- وَانْظِمِ الشُّعْرَ وَلَا زِمَ مَذْهَبِي

فِي اطَّرَاحِ الرَّفْدِ .. فَالْدُّنْيَا أَقْلٌ^(١)

٢٨- فَهُوَ عُنْوَانٌ عَلَى الْفَضْلِ وَمَا

أَحْسَنَ الشُّعْرَ إِذَا لَمْ يُبَيِّنْ ذَلِكَ

٢٩- مَاتَ أَهْلُ الْفَضْلِ^(٢)، لَمْ يَبْقَ سِوَايَ

مُقْرِفٍ أَوْ مَنْ عَلَى الْأَصْلِ اتَّكَلَ

(١) في بعض النسخ: لا تبغ النحل .

(٢) مثلث الراء .

المرء طلباً للدنيا حقق له ذلك بقدر جهده وحيلته، وإذا حصله
للآخرة وثبت على الصدق في العزم تحقق له أمر الآخرة والدنيا،
ومن ذلك حسن الذكر والشرف .

وتمر بالناس أوقات تراهم فيها راغبين في العلم محبين لأهله
متشبهين بهم، ثم لا يلبثون أن يكفوا عنهم راجعين، كأنما نزع
تلك الرغبة من قلوبهم، وترى منهم من ينتقل في طبقات أهل العلم
بحسب المصلحة، وإقبال الدنيا عليه، فإذا أدبرت راح إلى طبقة
أخرى . . .

والعلم كالحديقة ذات الظلال الوارفة والأشجار الخضرة، فإن
حفها من جوانبها زهر الورد، ونور الأقحوان وفاح منها روائحها
الزكية زادها ذلك جمالاً وحسناً، وكذلك إذا اجتمع العلم والعمل
وحسن الأدب .

اللسان العربي أعذب الألسنة، ولا يكمل له جماله إلا بالإعراب،
والقانون النحوي، والنحو واحد من العلوم الضرورية، التي يجب أن
يدرسها طالب العلم، وهو علم محدود لا يقبل التوسع؛ لأنه يخضع
لقوانين محدّدة، وضعها السابقون وإنما يقبل الزيادة والتوسع من
العلوم ما كان فيه إبداع وخيال أو كان فيه قابلية التغيير بحسب
ما تطلبه الحضارة والأزمان، وعلم النحو ليس كذلك؛ لأن قواعده
مأخوذة من نصوص لا نملك التبديل فيها ولا التعديل، وهي
القرآن، ونصوص الشعر والنثر، التي يُحتجّ بها، وما من عالم في

إِنَّ ذَوِي النَّحْوِ لَهُمْ هِمٌّ مَمَّةٌ مَوْسُومَةٌ بِالْمَكْرِ وَالْكِيدِ
يَضْرِبُ عَبْدُ اللَّهِ زَيْدًا وَمَا يُرِيدُ عَبْدُ اللَّهِ مِنْ زَيْدٍ

ولا نرى مع ذلك أن يُفني الطالب فيه العُمُر؛ لأنه علم آلة، يُتَعَلَّمُ لغيره لا لذاته، وحسب الطالب من ذلك فهم «ألفية ابن مالك»^(١)، وما في معناها.

وأما نظم الشعر فهو من جمال الكمال، وكمال الجمال، وابن الوردي لم يقصد نظم الشعر العلمي وحده، بل قصد نظم الشعر مطلقاً، وهو يزين بهاء البيان، ويزيده عذوبة وقبولاً، والإكثار منه في الإنشاء والخطابة إكثاراً فاحشاً مما يزرى ويفوت المقاصد والكيلات على المتكلم والسامع أو الكاتب والقارئ.

وكان ابن الوردي شاعراً، وسيفره هذا شاهدٌ على رقة طبعه وجمال أسلوبه.

وقوله: فاطرُ أَرَحُ الرَّفْدِ فِي الدُّنْيَا أَقْلُ، أي: ترك العطاء في الناس قليلاً، يريد أن يقول: إن مذهبه كذلك. وهذا المعنى - مع صحته - لا يأتلف مع سهولة نظمه وجمال سبكه، ولعل الكلام هكذا:

(١) كتبت عليها شرحاً مُيسراً، يجلي عباراتها ومقاصدها بلفظ موجز، يحتاج إليه المبتدئ، ولا يستغني عنه المنتهي.

٣٠- أَنَا لَا أَخْتَارُ تَقْبِيلَ يَدٍ

قَطْعُهَا أَجْمَلُ مِنْ تِلْكَ الْقُبْلِ

٣١- إِنْ جَزَيْتَنِي عَنْ مَدِيحِي صِرْتُ فِي

رِقِّهَا أَوْلاً فَيَكْفِينِي الْخَجَلُ

اللفظة:

رِقِّهَا: بكسر الراء: ملكها، وبالفتح: الورق، وبالضم: الإوز.

لَعَلَّ: كلمة تَرَجَّ أو توقُّع أو إشفاق.

الشرح:

استطرد الشاعر وجرَّه السياق إلى الحديث عن نفسه، كأنه يصوّر ما يفعله غيره من الشعراء والمادحين، وهي وصية قدمها في قالب جديد، وللنصح قوالب شتى، وهذا من أبرعها وأبدعها، وهو أن يمثل المتكلم نفسه بمنزلة المنصوح، فيجري الكلام على لسانه كأنه قد قبل النصيحة وعمل به.

يقول: أنا لا أختار ما يختاره كثير من الناس من التزلف والمدح لمن لا خير فيه بتقبيل يده، والخنوع له، فربما كان قطع تلك اليد الآثمة التي تتناول المعصية خيراً من تقبيلها، وهي إن جزتني عن

أعظم سجايا الكرام رحابة خاطر، وسخاء الكف بلا مَنْ
ولا أذى^(١) .

والاستغناء بالله أوفى عمل، والتوكل عليه أزكى أمل، وكما قيل:
سائل اللئيم يرجع ودمعه سائل .

لَا تَسْأَلَنَّ بَنِيَّ آدَمَ حَاجَةً

وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لَا تُحْجَبُ

اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ

وَتَرَى ابْنَ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

ثم قال:

٣٢- أَعَذَبُ الْأَلْفَازِ قَوْلِي لَكَ خُذْ

وَأْمَرُ اللَّفْظِ نُطْقِي بِلَعْلٍ

هذا البيت مما جرى على الألسنة، وسار مسار الأمثال وقصد
المصنف منه الإشارة إلى حُسن درجات التعامل مع مَنْ سأل
أو التمس حاجة تقضيها له، وهو إنجازها والإيفاء بها عند طلبها،
أو الوعد بتحقيقها بعبارة صادقة تنبئ عن اقتدار ونجدة .. وأمر ألفاظ

(١) حينما بلغتُ هذا الموضع طلب مني - وهو بمنزلي صاحبنا الدكتور: عائض القرني -
مناولته، فقرأ ما قبله، ثم كتب بأسلوبه الشائق الرائق ما بين القوسين .

عَزَمَهُ: مُرَادُهُ الْمَصْمَمُ عَلَيْهِ .

الشرح:

يُزَهِّدُ فِي الدُّنْيَا، وَيَحِثُّ عَلَى الْقَنَاعَةِ، وَتَرْكِ الطَّمَعِ فِي هَذِهِ
الْأَبْيَاتِ الرَّائِقَةِ الْمَمْتَعَةِ، وَالْفَافِظِ الْجَنَاسِ، وَجَمَلِ الْاِقْتِبَاسِ، فَالْعِزُّ
كُلُّهُ فِي السَّعَادَةِ وَرَاحَةِ الْبَالِ، وَالسَّعَادَةُ كُلُّهَا فِي التَّقْوَى وَالْقَنَاعَةِ،
وَقَدْ تَكُونُ الدُّنْيَا فِي يَدِكَ، وَفِي قَلْبِكَ مِثْلُ مَا تَمْلِكُ عَنَاءً وَهَمًّا وَغَمًّا،
فَلَا الْمَالُ يَصْنَعُ السَّعَادَةَ وَحْدَهُ، وَلَا الْجَاهُ، إِنَّمَا السَّعَادَةُ فِي الرِّضَى
بِالْقَلِيلِ، وَالْخَوْفِ مِنَ الْجَلِيلِ. وَقَدْ سَأَلَ أَحَدُ الْخُلَفَاءِ يَوْمًا وَزَرَءَاءَهُ
وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْحَاشِيَةِ: مَنْ أَسْعَدَ النَّاسَ؟ فَقَالُوا: أَنْتَ يَا أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: أَسْعَدَ النَّاسَ رَجُلٌ لَهُ زَوْجَةٌ يُحِبُّهَا وَتُحِبُّهُ، آمَنِينَ
لَا نَعْرِفُهُ وَلَا يَعْرِفُنَا. وَلَوْ خَيْرٌ أَغْنَى النَّاسَ فِي الدُّنْيَا بَيْنَ مَا يَمْلِكُ
وَجُرْعَةِ مَاءٍ، لَاخْتَارَ مَا يَسُدُّ رَمَقَهُ مُقَابِلَ كَنْزِهِ، وَمِثْلُ ذَلِكَ انْجِبَاسُ
فَضْلَتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ الْوَرْدِيِّ:

مُلْكُ كِسْرَى عَنْهُ تُغْنِي كِسْرَةً

وكما قيل:

الْجُوعُ يُطْرَدُ بِالرَّغِيفِ الْيَاسِ

فَعَلَامَ تَكْثُرُ حَسْرَتِي وَوَسَاوِسِي؟

وليس كلُّ ما يحويه المرء ويجمعه من مال، يرجع إلى قوة حيلته،
وحدة ذكائه، ولا كلُّ مافاته يفوته بالكسل والفتور، فكم من قعيد
يُرزق في بيته ما لا يُرزقه ساعٍ كادحٍ طولَ يومه، غير أننا أمرنا جميعاً
بأن نسعى ونعمل، فإن عملك ليس لك وحدك، بل هو عائد عليك
وعلى غيرك، أو على غيرك دونك، وبهذا تُرزق ولو بعد حين، ومن
أجل ذلك يصل رزقك إليك، وربما رزق بعض وكلك بسببك وأنت
لا تشعر، وكل ذلك مع الاعتماد على الخالق عز وجل، ولهذا قيل:
ترك الأسباب سفةً، والاعتماد عليها نوع من الشرك، والواجب
العمل بالأسباب، والاعتماد على الرزاق الوهاب.

٣٦- اِطْرَحِ الدُّنْيَا فَمِنْ عَادَاتِهَا

تَخْفِضُ الْعَالِي وَتُعْلِي مَنْ سَفَلَ

٣٧- عَيْشَةُ الزَّاهِدِ فِي تَحْصِيلِهَا

عَيْشَةُ الْجَاهِدِ، بَلْ هَذَا أَذَلُّ^(١)

٣٨- كَمْ جَهْلٍ وَهُوَ مُثَرِّ مُكْثَرٌ

وَحَكِيمٌ مَاتَ مِنْهَا بِالْعِلَلِ

اللفظة:

الجاهد: من الجهد، وهو المشقة، بفتح الجيم، ويضم.

مُثَرِّ: صاحب ثراء.

(١) في نسخة: أقل .

وحياة الزاهد في الدنيا المطَّرح لها كحياة من أتعِب نفسه في
تحصيلها .. الكلُّ سواء ، ولن يأخذ كلُّ أحدٍ إلا ما كُتِبَ له .

وَالسَّعْيُ فِي الرِّزْقِ وَالْأَرْزَاقُ قَدْ قُسِمَتْ

بَعْيٍ* أَلَا إِنَّ بَعْيَ الْمَرْءِ يَصْرَعُهُ

يريد: السعي فوق العادة.

وعن شقيق الزاهد: اختار الفقراء ثلاثة أشياء: راحة النفس، وفراغ
القلب، وخفة الحساب. واختار الأغنياء: تعب النفس، وشغل
القلب، وشدة الحساب.

وكم من جهول أحرق يأتية المال مدراراً ومكشاراً، لم يصل إليه
بذكاء ولا عقل، وكم من عليم صاحب عقل، لم ينتفع بعقله في
شيء من تحصيل الرزق، وربما أداه عقله إلى الخسارة والافتقار، ثم
الهمَّ والسَّقم، وكان ذلك سبباً حتفه وتلفه.

٣٩- كَمْ شُجَاعٍ لَمْ يَنْلُ فِيهَا الْمُنَى

وَجَبَّانٍ نَالِ غَايَاتِ الْأَمَلِ

٤٠- فَاتْرُكْ الْحِيلَةَ فِيهَا وَاتَّئِدْ

إِنَّمَا الْحِيلَةُ فِي تَرْكِ الْحِيلِ

اللفظة:

الْمُنَى: جمع مُنية، وهي ما يُتمنى، والاتئاد: الترفق .

ثم قال :

٤١- أَيُّ كَفٍّ لَمْ تُقَدِّمْ مِمَّا تُقَدِّ

فَرَمَاهَا اللَّهُ مِنْهَا بِالشَّالِلِ

اللغة:

تُقَدِّمُ: تُعْطِي

مما تُقَدِّمُ: بضم التاء، وفتح الفاء، والأصل: تفاد، ولكنه عامله
معاملة المجزوم، الذي تحذف ألفه للالتقاء الساكنين؛ لأن الدال هنا
ساكنة.

الشرح:

يدعو على البخلاء الذين يأخذون ولا يعطون، ويتنفعون
ولا ينفعون، يقبضون أيديهم .. يدعو عليهم بالهلاك وتلف أيديهم
وأرجلهم .. والبخل داءٌ عزيز الدِّواء، تأتي مرتبته بعد الحمق،
وللبخل من الحمق نصيب، فهو من الأمراض المزمنة القديمة، التي
لم يكتشف لها الطب الحديث علاجًا.

ومن الناس من يخلط بين البخل وترشيد المال وإنفاقه في موضعه
باعتدال.

الترجس: على وزن مجلس وسيمس، زهر له رائحة زكية .

الشرح:

يقول: لا تفتخر بنسب ولا ولد، فهذا فعل العاجزين، إنما أصلك وفصلك ما حصل منك من مشاركتك لبني جنسك، ونفعك لنفسك ومجتمعك، وما أنت فيه من خصال حميدة، وعمل ناجح، وكن كما قال الأول:

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَدَتْ عِصَامًا وَعَلَّمَتْهُ الْكَرَّ وَالْإِقْدَامَا

وفي يوم القيامة ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ﴾

شَيْئًا ﴿[لقمان: ٣٣]﴾.

ولو كان المرء يسود بآبائه، لساد الناس كلهم؛ لأنهم كلهم يتتهون إلى من هو عالي الرتبة، رفيع المنزلة في الأصل الأصيل، ولما وجدنا سادة أباة لم تسد آباؤهم، بل كانوا في منزلة منحطة، ومنهم من لا يُعرف أبوه، وأكثر العلماء في القرن الثاني الهجري من الموالى، كالحسن، وقتادة، وعطاء، ومكحول، وسيبويه، وليس في القراء السبعة ورواتهم من هو صريح النسب إلا أبا عمرو بن العلاء، وعبدالله بن عامر الدمشقي.

والى ذلك يشير الشاطبي بقوله:

أَبُو عَمْرٍهِمْ وَالْيَحْصَبِيُّ ابْنُ عَامِرٍ صَرِيحٌ وَبَاقِيهِمْ أَحَاطَ بِهِ الْوَلَا

٤٦- قِيمَةُ الْإِنْسَانِ مَا يُحْسِنُهُ

أَكْثَرَ الْإِنْسَانِ مِنْهُ أَوْ أَقَلُّ

٤٧- أَكْتُمُ الْأَمْرَيْنِ فَقَرًّا وَغَنًى

وَإِكْسَبِ الْفُلْسَ وَحَاسِبٌ مَنْ بَطُلُ

٤٨- وَادَّرِعْ جِدًّا وَكَدًّا وَاجْتَنِبْ

صُحْبَةَ الْحَمَقَى وَأَرْبَابَ الْخَلَلِ

اللغة:

الفلّس: بفتح الفاء، جمعه أفلس وفلّوس، ومعناه معروف .

بطل: خسر .

إدَّرِعْ: فعلٌ أمرٌ من: ادَّرَعَ، إذا لبس الدَّرْعَ .

جدًّا: اجتهدًا، الاسم بالكسر، والمصدر بالفتح، ويأتي مفتوحًا
بمعنى العظمة، والحظّ، ووالد الأب .

الشرح:

فائدة النظم تقييد المعاني بكلام أدعى للحفظ، وأصل الكلام
الذي نظم في البيت الأول مروي عن علي بن أبي طالب: «قيمة المرء

واختلف العلماء: أيُّما أفضلُ الغنيُّ الشاكرُ، أم الفقيرُ الصابرُ؟
ف قيل: الشاكر، وقيل: الصابر، وقيل: أفضلُهما أتقاهما، وهذا ليس
بسديد؛ لأنه إذا كان الفضلُ بذلك، كان التفضيلُ بالتقوى، لا بذات
الغنى مع الشكر، والفقير مع الصبر، وهو خروج عن محل الخلاف،
بل هذا الجوابُ يصلحُ في كلِّ متفاضلينِ اختلفَ فيهما .

وقوله: وَاكْتَسَبَ الْفَلْسُ. حَثُّ عَلَى الْعَمَلِ وَالْجِدِّ لِإِعْزَازِ النَّفْسِ،
ومحاسبة أهل البطالة التاركين للعمل وهم قادرون، وباعث الجد هو
الإرادة والعزم، وفي الحكمة: حيثما وُجدت الإرادة، وُجد الطريق.

ثم نَفَذَ من ذلك إلى الحثِّ على التدرُّع بالجد والكد والاجتهاد
والعمل، وأول عمل يراد هو العمل للآخرة، ثم العمل لبناء الحياة،
وإعمار الأرض، والعمل عزٍّ للنفس، وراحة للضمير، وبناء
للجسم، وإعفاف للعيال .

ومما يُعِين على العمل للأولى والآخرة: الابتعاد عن مصاحبة
الحمقى، والحمق داءٌ ليس له دواء، ولا ينجع فيه محاولة المهرة من
الأطباء والحكماء .

لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ يُسْتَطَبُ بِهِ إِلَّا الْحَمَاقَةَ أَعْيَتْ مَنْ يُدَاوِيهَا

ويعرف الأحمق من كلامه وتصرفاته، فإنه يضر من حيث يريد
النفع، وهو لا يدري، وكم من أرواح وأموال وعلاقات ومكاسب
معنوية ضاعت جرّاء تصرف أحمق .

ثم قال رحمه الله :

٤٩- بَيْنَ تَبْذِيرٍ وَبُخْلِ رَبَّةٌ

فَكَلَّا هَٰذِينَ إِنْ دَامَ قَتْلُ

٥٠- لَا تَخْضُ فِي سَبِّ سَادَاتٍ مَضَوْا

إِنَّهُمْ لَيَسُوءُوا بِأَهْلٍ لِلزَّلَلِ

٥١- وَتَغَافِلُ عَنْ أُمُورٍ إِنَّهُ

لَمْ يَفُزْ بِالْحَمْدِ إِلَّا مَنْ غَفَلَ

الشرح:

التبذير: مأخوذ من البذر؛ لأنه حبوبٌ متفرقةٌ، وكذلك التبذير: تفريقٌ وتبديدٌ، بين منزلة التبذير والبخل منزلةٌ ثالثةٌ هي منزلة القوام والاعتدال .. ، ومن صفات عباد الرحمن: التوسطُ في الإنفاق بين الإسراف والإقتار ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (٦٧) [الفرقان] ، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (١٩) [الإسراء]، أي: فتتعد ملومًا يلومك الناس إذا بخلتَ بمالك وقبضت يدك، ومحسورًا، أي: في حسرة وندامة إذا بددت مالك، ولم تبق لنفسك ولمن تعول شيئًا .. وهو

أما الأول - والظاهر أنه مراد المصنّف - فخطأ لا تحتمله المبالغة، فالجميع معرض للزلل، وكل ابن آدم خطاء، وأما على المعنى الثاني فالكلام فيهم هو نوع من البهتان والافتراء أو الغيبة، وكثير من العامة يخلط في الفهم، فإذا أنكر عليه في قوله عن أحد من الناس وذمه، سارع بالإجابة: بأن ما قاله حق، وهل الغيبة إلا قول الحق في أخيك، والغيبة مُحَرَّمَةٌ، فإذا كانت في فاضل ميت، زادت حرمتها، واستثني من ذلك حالات، جمعها قول بعضهم:

لَيْسَ الْكَلَامُ بِغَيْبَةٍ فِي سِتَّةٍ مُتَظَلِّمٍ وَمُعَرِّفٍ وَمُحَذِّرٍ
وَلَمْ يُظْهِرْ فِسْقًا وَمُسْتَفْتٍ وَمَنْ طَلَبَ الْإِعَانَةَ فِي إِزْلَةٍ مُنْكَرٍ

ثم خلص الناظم بعد ذلك إلى الحث على صفة محمودة، وهي التَّعَافُلُ في الموضوع الذي يحسن فيه ذلك .

وذكر ابن حزم في كتاب «مداواة النفوس» أن من عجائب الأخلاق أن الغفلة مذمومة، واستعمالها محمود، وفي مثل ذلك يقول الشاعر:

لَيْسَ الْغَيْبِيُّ بِسَيِّدٍ فِي قَوْمِهِ لَكِنَّ سَيِّدَ قَوْمِهِ الْمُتَغَابِي

وعن بعض السلف: تسعة أعشار حسن الخلق في التَّعَافُلِ.

ولمثل هذا التخلق مواضع، من أحسنها: التغاضي عما يعرض بك، فتعرض عنه إعراض من لم يفهم مقصوده، ومثله التغافل عن سقطات الأهل والولد والقريب، مع التَّهْوِيلِ من فعل ذلك في وقت

الشرح:

ليس أحد يخلو من حاسدٍ أو حاقدٍ أو عدوٍ كاشحٍ إلا أن يكون سلبَ النعمة ليست له أيُّ ميزةٍ على أحدٍ من خلق الله، وهذا هو البائسُ الفقير، المُبتلى في دنياءه، ومع ذلك لن يخلو من شامتٍ ومعيّرٍ، ذلك هو شأن الناس، ومن عَرَفهم أَحَسَّ التعايش المناسب بما تُرشد إليه الديانةُ ويريحُ نفسه، وأما طلبُ رضا الناس جُملةً، فمحالٌ، وتكليف فوق الطاقة، فإننا لا نرضى عن أنفسنا في كثير من الأحيان. ولا يدرك رضا الناس حتى من حاول العُزلة في رأس الجبل .. سوف يجدُ من يقول عنه: مجنونٌ، أو مُعَقَّد، أو انطوائي، وكذلك يفعلون. ولا بد في الحياة من غَصَص، وقد تقدم الكلام عن العزلة باستفاضة في أول الكتاب .

لَا تَرْجُونَ صَفْوًا بَغِيرِ كَدَرٍ فَذَا -لَعَمْرُ اللَّهِ- لَمْ يَتَّفِقِ

ولا يزال ابن الوردي يرسل وصاياه ونصحه أمراً وزجراً، فكان من غرره ودُرره قوله: مِلْ عَنِ النَّمَامِ .. إلخ .

أي: اجتنب النمام، ومِلْ عنه كلَّ الميل، ولا تخالطه، فهو شر الناس وأخسهم، قال عز وجل: ﴿وَلَا تُطْعَمْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ ١٠ هَازِمٌ مَشَاءٌ بِنَمِيمٍ ١١ [القلم]، وثبت في الصحيح: «لا يدخل الجنة نمام»، وفي لفظ: قَتَات، وهما بمعنى، والحديث يشير إلى أن النميمة من الكبائر، فإن كان من الموحدين فالحديث محمول على أحد أمرين:

٥٥- جَانِبِ السُّلْطَانِ وَاحْذَرْ بَطْشَهُ

لَا تُعَانِدْ مَنْ إِذَا قَالَ فَعَلْ

٥٦- لَا تَلِ الْحُكْمَ وَإِنْ هُمْ سَأَلُوا

رَغْبَةً فِيكَ وَخَالَفَ مَنْ عَذَلْ

٥٧- إِنْ نَصَفَ النَّاسُ أَعْدَاءَ لِمَنْ

وَلِيَ الْأَحْكَامَ، هَذَا إِنْ عَذَلْ

٥٨- فَهُوَ كَالْمَحْبُوسِ عَنْ لَذَّاتِهِ

وَكَلَّا كَفَيْهِ فِي الْحَشْرِ تُغَلْ

اللغة:

عَذَلْ: لَامٌ، ومضارعه بكسر الذال وضمها .

تُغَلْ: مادة (غ ل ل): دالة على ضم وخفاء، وكذلك كل كلمة أولها غين، والغَلَّ وضع القيد في اليد، وفي القرآن: ﴿عُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤].

الشرح:

مجانبة إغضاب السلطان، والحدّ من بطشه، ومُلايئته في الخطاب، مما يُدركه العقلاء، لا سيما في الأمر بالمعروف، والتنبيه

ومما يحسن إirاده في هذا المقام أبياتاً قالها الصنعاني يخاطب بها عالماً من علماء تلك الديار اليمنية، وليّ القضاء على كبر، وكان القضاء آنذاك فتنة، والأبيات كثيرة أجتزئ منها قوله:

ذَبَحْتَ نَفْسَكَ لَكِنْ لَا يَسْكُنُ كَمَا رَوَيْنَاهُ عَنْ طَهَ وَيَاسِينَ

إلى أن قال:

وَحَيْثُ قَدْ صَرْتَ مَذْبُوحًا فَخُذْ جُمْلًا

فِي التُّصَحِّحِ مَا بَيْنَ تَنْبِيهِ وَتَبْيِينِ

ثم يقول مطمئناً له:

مَا مَاتَ وَاللَّهِ جُوعًا عَالِمٌ أَبَدًا سَلِ التَّوَارِيخَ عَنْهُ فِي الدَّوَاوِينِ

وابنُ الورديّ - هنا - يَصُورُ واقعاً في زمانه ومجتمعه، كان على حال سيئة، وفي قوله: إِنَّ نَصْفَ النَّاسِ ... مقالةٌ صدق؛ لأن من حكم بين الناس بالعدل، اتخذَه المحكومُ عليهم عدوًّا، ولم يَسْلَمْ من كلامهم وأذاهم، وذلك أَنَّ كل قضية حكم فيها حاكم، فلها طرفان: طرف محكوم عليه، وطرف محكوم له، فأما النوع الأول فهو ساخط أبداً، أصاب القاضي في حكمه أو أخطأ، هذا إن عدل، فأما إذا لم يعدل، فأكثر الناس أعداؤه .

وقوله: فَهُوَ كَالْمَحْبُوسِ، أي: من حكم في الناس، يُصْبِحُ كالإنسان المحبوس الممنوع مما يُؤذَن فيه لكثير من الناس، ويُحْرَم من أشياء كثيرة، منها ما يوجبُه العُرفُ، ومنها ما يوجبُه المنصبُ،

أي: لا تساوي لذة الحكم مرارة العزل، حينما يصْدُرُ القرار بعزله عن عمله .. هكذا قال المصنّف، والعاقل لا يكثرُ بعزْلٍ ولا تركٍ؛ لأنه إما أن يكون محسِنًا في عمله، فينتهي إلى خير خلاصٍ، وإما أن يكون مُسيئًا فهذا على أي شيء يبقى؟ ولمَ يتمادى؟ وقد سوّد ديوانه. وكلمة: انعزل، فعل مطاوع، يقال: عزلته فانعزل، وكسرتُه فأنكسر .

٦١- فالولاياتُ - وإنْ طابتْ لِمَنْ

ذاقَهَا - فالسّمُّ ذاكُ فِي العسلِ

٦٢- نَصَبُ المنصبِ أَوْهَى جَسَدي

وَعَنائي عَن مُدَاراةِ السّفْلِ

اللفظة :

السّم: بفتح السين، وضَمُّها، وكسْرِها، والأفصح: الفتح، والأشهرُ الضّم، وهو المادة القاتلة، كسمّ الأفعى والعقرب وغيرهما مما فيه شبه من تلك الخاصيّة .

نَصَب: تَعَبٌ وَعَناءٌ .

أَوْهَى: أضعَفَ .

السّفْل: أراذل الناس، وسفُل في علمه: نَزَلَ .

٦٤- إِنَّ مَنْ يَطْلُبُهُ الْمَوْتُ عَلَى

غِرَّةٍ مِنْهُ جَدِيرٌ بِالْوَجَلِ

اللغة:

غِرَّةٌ: بكسر الغين: غَفْلَةٌ .

جَدِيرٌ: حَقِيقٌ .

بِالْوَجَلِ: بالخوف .

الشرح:

لما كان بعضُ ماتقدِّم التحذيرُ منه سببُ حُبِّ الدُّنيا والتعلُّقُ بها،
أراد أن يعالجَ ذلكَ السببَ؛ ليجتثَّهُ من أصله .

ومن أطلَّ أمله في الدُّنيا، وركنَ إليها، غرَّته، فوقع في شِراكها،
كما وقع من هو أشدَّ منه قوةً وأكثرُ جمعًا، فما أغنى عنه ماله
ولا جمعه .

وقصر الأمل سببٌ لراحة النَّفس، وموجَّهٌ للقلب إلى الآخرة،
والناسُ في الأمل درجات:

منهم مَنْ يُؤمِّلُ الخلود، ومنهم مَنْ يؤمِّلُ ما لا يجري عليه
الواقع من الأعمار الطويلة التي لم يعمَّرها أحدٌ في زمانه، كما أخبر

وَلَكِنَّا إِذَا مِتْنَا بُعِثْنَا وَنُسْأَلُ بَعْدَ ذَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ

فالعاقل من جدّد توبته كلّ وقت، ولم يأمن هجمة الموت. قال
ابن حجر العسقلاني وقد أتم ثلاثاً وأربعين سنة:

أَخِي لَا تُسَوِّفُ بِالْمَتَابِ فَقَدْ أَتَى

نَذِيرٌ مَشِيبٍ لَا يُفَارِقُهُ الْهَمُّ

وَإِنَّ فَتَى مِنْ عُمُرِهِ أَرْبَعُونَ قَدْ

مَضَتْ مَعَ ثَلَاثِ عَدَّهَا عُمْرُ جَمٍّ

ثم قال رحمه الله:

٦٥- غِبُّ وَزُرْ غِبًّا تَزِدُ حُبًّا فَمَنْ

أَكْثَرَ التَّرَدَادِ أَضْنَاهُ الْمَلَلُ

٦٦- خُذْ بِحَدِّ السَّيْفِ وَاتْرُكْ غِمْدَهُ

وَاعْتَبِرْ فَضْلَ الْفَتَى دُونَ الْحُلِّ

اللغة:

الغِبُّ: عاقبة الشيء، وفي الزيارة: أن تكون كل أسبوع، كما في
القاموس (غيب)، والمشهور: أن الغِبَّ في الزيارة: عدم الإكثار
منها.

يقول الشاعر في معنى الإغباب من الزيارة:

عَلَيْكَ بِإِغْبَابِ الزِّيَارَةِ إِنَّهَا

إِذَا كَثُرَتْ كَانَتْ إِلَى الْهَجْرِ مَسْلَكًا

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْغَيْثَ يُسَامُ دَائِمًا

وَيُطْلَبُ بِالْأَيْدِي إِذَا هُوَ أَمْسَكَ

وَمَنْ أَكْثَرَ مِنَ التَّرْدَادِ عَلَى مَنْ يَزُورُ، سَوْفَ يُوَثِّرُ فِيهِ مَا يَرَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْمَلَلِ الَّذِي يَحْصُلُ لِلْمَزُورِ، بِسَبَبِ إِكْثَارِهِ مِنَ الزِّيَارَةِ، وَهَذَا مِمَّا يَغْتَمُّ لَهُ الْإِنْسَانُ، فَيُضْنِيهِ كَمَا قَالَ ابْنُ الْوَرْدِيِّ .

وَالْبَيْتُ الَّذِي بَعْدَهُ إِرْشَادٌ إِلَى اخْتِزَامِ الْأُمُورِ بِقُوَّةٍ وَعِزْمٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَنْبَغِي خُذَ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]، وَقَالَ: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣، ٩٣، الأعراف: ١٧١].

وَمَعْنَى الْبَيْتِ: إِضْرِبْ بِحَدِّ السَّيْفِ الْقَاطِعِ، وَاتْرُكْ غِمْدَهُ، فَإِنَّهُ لَا يُقَطِّعُ بِهِ .

وَلِهَذَا أَمْثَلُ كَثِيرَةٍ فِي الْحَيَاةِ، تُضْرَبُ لِلْعَامِلِ وَالتَّاجِرِ وَالطَّالِبِ وَالْكَاتِبِ وَالسَّائِرِ، وَغَيْرِهِمْ .

فَفِي الْوَسَائِلِ يُطْلَبُ مِنْكَ التَّمَسُّكُ بِالْوَسِيلَةِ الصَّحِيحَةِ، وَفِي الْغَايَاتِ يُطْلَبُ مِنْكَ اخْتِيَارُ الْهَدَفِ، وَإِصَابَةُ الْمَحْزَى، فَلَا تُضْرَبُ بِمَا لَا يَقْطَعُ،

اللغة:

الطفل: آخر النهار .

أسناً: متغيراً .

وسرى: السير ليلاً .

الشرح:

يعلل ما ذكره قبل من اعتبار المضمون والمخبر دون المظهر،
فالفقر لا يُزري بأهل الفضل والخير، فقد كان كثير من الأنبياء
والنبلاء فقراء، وبقي فضلهم وآثارهم، ولم ينقصهم إقلالهم، بل زاد
من ذكرهم وشرفهم .

والطفل: هو آخر ساعة من ساعات النهار، التي هي البكور .

وحلول الطفل لا يضُر الشمس، حين يُدني الشمس من الغروب،
فالشمس هي الشمس المشعة التي تملأ الكون ضياءً، فلان كان
الطفل يدينها من الغروب، فإن البكور يرفع أشعرته؛ لتضيء من
نافذة أخرى، في مكان آخر، وهي أيضاً على نفس المكان، تغرب
لتشرق مرة أخرى .

إذن: فالشمس هي الشمس، وأهل الفضل هم أهل الفضل، وإنما
الاعتبار بالجواهر والغاية .

٧٢- لَا يَغُرَّنْكَ لِإِنِّ مِنْ فَتَى

إِنَّ لِلْحَيَّاتِ لِنَا يُعْتَزَلُ

الشرح:

يخاطبُ الشاعرُ من يعيبُ نظامه وكلامه على جهة العِبث والنَّقد لذاتِ النقد، لا لفائدةٍ يحسُن السكوت عليها، ولا يزالُ الناس يعانون من مثلِ هذا الصَّنْفِ الفارغِ العقل إلا من السُّخفِ والحمق.

وأسبابه كثيرة، منها: فهمٌ سقيمٌ، ورأيٌ ضعيفٌ، يؤدي إلى ذلك. قال الشاعر:

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا

وَأَفْتَهُ مِنْ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

وقال الآخر:

قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ

وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمٍ

وهل يعيبُ الشَّمْسَ أن ضَعُفَ البصرُ عن رؤيتها .

ومنها: حُبُّ الشُّهرة والظُّهور .. وموقفَ العاقلِ بصدد من عَلم منه ذلك أن ينساه ويتجاهله ويعامله بنقيض مقصوده، ويبقى في مكانه العالي .

٧٣- أَنَا مِثْلُ الْمَاءِ سَهْلٌ سَائِغٌ

وَمَتَّى سُخْنٌ آذَى وَقَتْلٌ

٧٤- أَنَا كَالْخَيْزُورِ صَعْبٌ كَسْرُهُ

وَهُوَ لَيْنٌ، كَيْفَمَا شِئْتَ انْفَتَلَ

٧٤- غَيْرَ أَنِّي فِي زَمَانٍ مَنْ يَكُنْ

فِيهِ ذَا مَالٍ هُوَ الْمَوْلَى الْأَجَلُ

٧٥- وَاجِبٌ عِنْدَ الْوَرَى إِكْرَامُهُ

وَقَلِيلُ الْمَالِ فِيهِمْ يُسْتَقَلُّ

اللغة:

الْخَيْزُورُ: شَجَرٌ لَهُ عُرُوقٌ طَوِيلَةٌ، وَكُلُّ عُودٍ رَطْبٍ، وَهُوَ
الْخَيْزُرَانُ، وَوُجِدَتْهَا فِي الْمَطْبُوعَاتِ بِلَفْظِ الْخَيْزُرَانِ، وَلَا يَسْتَقِيمُ بِهِ
الْبَيْتُ.

لَيْنٌ: بِتَخْفِيفِ الْيَاءِ لَغَةٌ فِيهِ، مِثْلُ ضَيْقٍ وَضَيْقٍ، وَهَيْنٌ وَهَيْنٌ.

انْفَتَلَ: مِنَ الْفَتْلِ، وَهُوَ الْإِبْرَامُ.

الْمَوْلَى: السَّيِّدُ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْعَبْدِ، وَالْقَرِيبِ وَابْنِ الْعَمِّ،
وَالصَّدِّيقِ.

والشَّجَاعَةُ، والتَّوَاضُّعُ، والجُودُ، والقُوَّةُ، وكلُّ صفةٍ حَسَنِيٍّ. وأما
مَنْ لَا مَالَ لَهُ، فَإِنَّهُ يَجْمَعُ كُلَّ نَعْتٍ قَبِيحٍ، وَكُلَّ خَصْلَةٍ ذَمِيمَةٍ.

مَنْ كَانَ يَمْلِكُ دِرْهَمَيْنِ تَعَلَّمَتْ شَفَتَاهُ تَحْسِينَ الْكَلَامِ وَقَالَا
وَتَقَدَّمَ الْفُصَحَاءُ فَاسْتَمَعُوا لَهُ وَرَأَيْتُهُ بَيْنَ الْوَرَى مُحْتَالَا
لَوْلَا دَرَاهِمُهُ الَّتِي فِي كَيْسِهِ لَرَأَيْتُهُ شَرَّ الْبَرِيَّةِ حَالَا
إِنَّ الْغَنِيَّ وَإِنْ تَكَلَّمَ مُخْطِئًا قَالُوا: أَصَبْتَ، وَصَدَّقُوا مَا قَالَا
وَإِذَا الْفَقِيرُ أَصَابَ، قَالُوا كُلُّهُمْ: أَخْطَأْتَ يَا هَذَا، وَقُلْتَ ضَلَالَا
إِنَّ الدَّرَاهِمَ فِي الْمَجَالِسِ كُلِّهَا تَكْسُو الرِّجَالَ مَهَابَةً وَجَمَالَا
فَهِيَ اللِّسَانُ لِمَنْ أَرَادَ فَصَاحَةً وَهِيَ السَّلَاحُ لِمَنْ أَرَادَ قِتَالَا

وَلَمْ يُصَبِّ الشَّاعِرُ حِينَما اتَّهَمَ زَمَانَهُ وَحَدَهُ بِذَلِكَ، بَلْ هَذَا حَاصِلُ
فِي زَمَانِهِ وَزَمَانِ مَنْ قَبْلَهُ، وَبَعْدَهُ، وَهَلْ فَتَنَ النَّاسَ إِلَّا الدِّينَارُ
وَالدِّرْهَمُ. يَقُولُ بَعْضُ الظُّرَفَاءِ:

رَأَيْتُ النَّاسَ قَدْ مَالُوا إِلَى مَنْ عِنْدَهُ مَالٌ
وَمَنْ لَا عِنْدَهُ مَالٌ فَعِنَهُ النَّاسُ قَدْ مَالُوا
رَأَيْتُ النَّاسَ قَدْ ذَهَبُوا إِلَى مَنْ عِنْدَهُ ذَهَبٌ
وَمَنْ لَا عِنْدَهُ ذَهَبٌ فَعِنَهُ النَّاسُ قَدْ ذَهَبُوا

الشرح:

حكم الشاعر على جميع أهل عصره بأنهم أغرار، قَلِيلُو التَّجَرِبَةِ، وبَالَغ في ذلك، فَقَدْ كان في عصره ومِصْرِهِ من لم يُعرف بعده مَثِيلٌ، ولكنَّ الشَّرَّ إذا غَلَبَ يُنْسِي ما عَداه من الخَيْر، والإنسان إذا أُوذِيَ أو غَضِبَ أو كَرِهَ أو تشاءَمَ، أو جاورَ الأشرارَ، أو خالطَهم، أو عاملَهم في أمر الدُّنْيَا، وجد ما يُؤْيِسُهُ، وَيَنْزِعُ حُسْنَ الظَّنِّ من قلبه بعموم الناس .

ومن حُسْنِ تواضع الشَّاعر وفطانتِهِ أن قال: (وَأَنَا مِنْهُمْ)، قاله تواضِعًا واحتقارًا لنفسه، واحترازًا من تركية النَّفْسِ المَبْنِيَةِ على ذَمِّ الآخرين كُلِّهِم، كما يفعل بعضُ الناسِ مِنْ ذَمِّهِ لِلْكِبَارِ، ونقدهِ لَهُم؛ ليرفع من شأن نفسه، فيسئُ مرتين، فهو أَسْوأُ مِمَّنْ يمدح نفسه ابتداءً، وهذا أَسْوأُ مِمَّنْ يمدح نفسه بذمِّها، وإظهار التواضع .. كمن يقول: أحقرُّ العباد إلى الله، أو أنا أَقْلُكُمْ عِلْمًا وفهمًا ودينًا، ونحو ذلك مما نسمعُه من كثيرٍ من الواعظين والجلَّاسِ .

ولما كان كلامُ المصنِّفِ باعْثًا على الاستغرابِ من هذه الدعوى، وداعيًا إلى السؤالِ عن معنى هذا الإجمال، طلب ترك الاستفصالِ في المقالِ، وفزع إلى الإجمال، فما كلُّ شيءٍ يقالُ ..

وتمَّ «تفاصيل الجمل» شرحًا مفصَّلًا، لم أرد التطويل فيه بكثرة النقل والحواشي، والإطالة بتحقيق المسائل وتدقيقها، وإنما هي

الفهرست

٥	بين يدي التفاصيل
٩	مقدمة الطبعة الثانية
١١	مقدمة الطبعة الأولى .. وفيها الكلام عن الحكمة والتجربة وحال العصر .. ولغز في لامية ابن الوردي
١٥	ترجمة ابن الوردي
١٧	العزلة
١٩	زمن الصبأ .. وذهاب اللذة وبقاء الحسرة
٢١	ضحايا الحب .. لا دية ولا قود
٢٢	اجتناب اللهو ودواعي الفحشاء
٢٤	استطراد ابن الوردي فيما لا يحسن الاستطراد فيه
٢٤	شمس الضحى
٢٤	استطراد آخر ..
٢٦	تدقيقات لغوية .. والكلام عن منتهى الجمال، وحال الدنيا
٢٨	الخمرة وغوائلها
٢٩	تقوى الله هي البطولة الحقيقية
٣٠	الركون إلى الشرع لا إلى الكهان، وفضيحة عن المنجمين

٧٢	ملايمة السلطان، والحكم، وحال الناس مع القضية، وحال القاضي
٧٦	لفظة القاضي
٧٦	هل تساوي لذة الحكم مرارة العزل
٧٧	الولاية .. والمنصب ونصب المنصب
٧٨	تقصير الأمل في الدنيا دليل العقل .. وملاحقة الموت
٨١	إغباب الزيارة، وعدم الاغترار بالمظهر
٨٤	الفقر لا يعيب أهل الفضل، والاغتراب
٨٦	المصنّف يحذّر من النقد عبثاً
٨٩	المصنّف يصف زمانه ونفسه
٩٢	اترك تفاصيل الجمل
٩٣	الخاتمة بيان واعتذار
٩٥	الفهرست